الدرس الثالث عشر: كتاب "الصناعتين" لأبي هلال العسكري

حفل القرن الرابع هجري بالعدد من النقاد، الذين نهلوا من السابقين، وزادوا على علمهم، ومنهم الناقد أبو هلال العسكري، صاحب كتاب "الصناعتين" الذي عد من أهم الكتب الأدبية لم تضمنه من أشعار وخطب، وشواهد من القرآن الكريم.

1. نبذة عن الكاتب

هو أبو هلال الحسن بن سهل العسكري، أطلق عليه العسكري نسبة إلى مدينة عسكر التي نشأ فيها من نواحي كور الأهواز، من أعلام القرن الرابع هجري، لم تذكر التراجم تاريخا لمولده، وكذا الحال بالنسبة لوفاته، وهناك من يرى أنه توفي سنة 395ه، هذه المدينة ظهر في الكثير من العلماء الذين خدموا العلم والتراث من الضياع، كان أبو هلال العسكري لغويا وناثرا وشاعرا ومؤلفا وناقدا وبلاغيا.

أهم مؤلفاته:

أ. جمهرة الأمثال
ب. التلخيص
ت. معاني الأدب

2. نبذة عن الكتاب

سمي الكتاب بالصناعتين أي صناعة الكتابة والشعر، فهو تحدث عن الشعر والنثر، فالأدب صناعة لما فيه من المهارة في إصابة المعنى، أو ابتكار الخيال، أو جمال الفكرة وحسن الصياغة. قسم كتابه إلى عشرة أبواب على 53 فصلا، أولها لموضوع البلاغة وحدودها، وثانيها لتمييز الكلام جيده من رديئه، وثالثها في معرفة صنعة الكلام وترتيب الألفاظ، ورابعها في حُسن النظم وجودة الرصف، وخامسها للإيجاز والإطناب، وسادسها للسرقات الشعرية، وسابعها للتشبيه، وثامنها للسجع والازدواج، وتاسعها لفنون البديع، والعاشر لحسن المبادي والمقاطع وجودة القوافي.

كانت غاية الكاتب في تأليف كتابه:

أ. الغاية الدينية: أراد أن يثبت إعجاز القرآن وسر بلاغته وجماله.
ب. الغاية الأدبية: أراد الكاتب من هذا الكتاب أن يبين دور البلاغة في الكتابة فهي تحقق ثلاث فوائد:
   1. إدراك إعجاز القرآن الكريم إدراكا مبنيا على النظر والفقه والتذوق.
   2. أعانة النقاد على تمييز جيد الكلام من رديئه.
   3. إرهاف الحس والشعور ليميز الأديب جيد الألفاظ من رديئها.

3. أهم قضايا الكتاب

أ. ذكر فصلا في تعريف البلاغة، وأورد العديد من التعاريف للنقاد منهم ابن المقفع،

ب. عرف أبو هلال العسكري الشعر:"كلام منسوج، ولفظ منظوم، وأحسنه ما تلاءم نسجه ولم يسخف، وحسن لفظه زلم يهجن، ولم يستعمل فيه الغليظ من الكلام فيكون جلفا بغيضا، ولا السوقي من الألفاظ فيكون مهلهلا دونا"، فقد ركز الكاتب على مقدرة

المبدع في التصرف في اللغة، كما ركز على المتلقي وعلى البنية الفنية الكلية للقصيدة. فالشعر عنده ناتج تجربة شعورية وجدانية مهيمنة على الشاعر، ويتضح هنا في حديثه عن دوافع القول ومثيراته، فالتجربة الشعرية تحتاج إلى مهيئات نفسية تعين على كمال تشكلها، كما تعين الشاعر على كمال التعبير، وتدخل فيها المشاعر المصاحبة وأثر البيئة وطيب المنزر وملامح المكان.

ت. طرح أبو هلال العسكري رأيه في قضية اللفظ والمعنى، ويبدو أن موقفه لا يكاد يختلف في الظاهر عن تصور الجاحظ للعمل الفني، فدعا إلى الاهتمام بجانب اللفظ، والعناية بالشكل الخارجي، والذي هو في رأيه مجال الحكم، وميدان الجودة والبراعة في الفن. أكد العسكري على أهمية اللفظ الجيد، فالقضية عنده تقوم على أن الأدب فن جميل لا يراد به عرض المعاني فحسب، ولكن يراد به عرضها في جميلة مؤثرة، فالكلام إذا كان لفظه حلوا وعليا وسلسا وسهلا، وعناه وسطا، دخل في جملة الجيد وجرى مع الرائع النادر.

ث. عني العسكري بدراسة السرقات عناية كبيرة، فعقد لها في كتابه فصلين: الأول في"حسن الأخذ"، والثاني في "قبح الأخذ"، لذلك رأ العسكري أن السرقة تكمن في عملية صناعة الكلام، وهذا ما يشبه عملية صناعة الجواهر، فالمادة الخام هي نفسها، ولكن عملية تشكيلها تختلف من صانع إلى آخر، فيصبح الصانع مالكا لما صنع، لأنه استعار معنى عاريا وكساه بلفظ من عنده. آمن العسكري بالأخذ الحسن ويضع له القواعد التالية:

1. أن يكسو المتأخر معنى المتقدم ألفاظ من عنده.
2. أن يصوغه صياغة جديدة، ويورده في غير حليته الأولى.
3. أن يزيد في حسن تأليفه، وجودة تركيبه وكمال حليته.
4. أن يأخذ معنى من النثر فينظمه.
5. أن ينقل المعنى من غرض لآخر.

ثم حاول العسكري حصر الأخذ القبيح فيما يلي:

1. أخذ المعنى بلفظه كله.
2. أخذ المعنى بأكثر لفظه.
3. عرض المعنى الجميل في معرض مستهجن.
4. **الكتاب في ميزان النقد**

1. شن محمد مندور هجوما على أبي هلال العسكري، وألحقه بقدامة بن جعفر في تعقيد البلاغة، وأن أفكاره موغلة في المنطق. رغم أن النقاد يرون أنه من المدرسة الأدبية لا المنطقية.

2. **ما سر اقتصاره على عشرة أبواب.**

3. **ليس هناك ترابط بين الأبواب، وليس بينها تنظيم.**

4. **جعل البديع باب وأخرج منه السجع والإزدواج، وأدخل فيه الاستعارة وأخرج التشبيه.**

في الأخير يمكن القول أن كتاب الصناعتين في الأدب العربي وفي البلاغة هو عبارة عن خلاصة ما توصل إليه سابقوه أمثال الجاحظ، وابن قتيبة، وابن المعتز، وقدامة بن جعفر، والآمدي...وغيرهم، وفي تناول مختلف القضايا البلاغية، وبين ضرورة علم البلاغة لفهم إعجاز القرآن، بل ما زيد الكتاب قيمة التدريس فيه الجامعات اليوم.